التكليف من الله مباشرة ، فما بالك بالأولاد الذين لم يأخذوا التكليف مباشرة بل عن طريق الرسل . إذن كان ظن إبليس مبنياً على الدليل فالظن ـ كما نعلم ـ هو نسبة راجحة وغير متيقنة ، ويقابلها الوهم وهو نسبة مرجوحة :

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة سبأ)

ولذلك قال إبليس أيضاً :

﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الإسراء)

وقال كذلك :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة ص)

مادام إبليس قد قال : « لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً » .

فهذا اعتراف بأنه لن يستطيع أن يأخذ كل أولاد آدم . والفرض ـ كما نعلم ـ هو القطع . ويقال عن الشيء المفروض : إنه المقطوع الذى لا كلام فيه أبداً .

وما وسيلة إبليس ـ إذن ـ لأخذ نصيب مفروض من بنى آدم ؟

ويوضح الحق لنا وسائل إبليس ، على لسان إبليس :

﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ

﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ (١١٩)

فى هذه الآية تفصيل لطرق أخذ إبليس لنصيب مفروض من بنى آدم . فإبليس هو القائل كما يحكى القرآن :

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

وعرفنا من قبل أنه لن يقعد إلا على الطريق الطيب ؛ لأن طريق من اختار السلوك السيىء لا يحتاج إلى شيطان ؛ لأنه هو نفسه شيطان ؛ لذلك لا يذهب إبليس إلى الخمارة ، ولكنه يقف على باب المسجد ليرى الناس وهى تفعل الخير فيوسوس لهم ، وفى هذا إجابة لمن يقولون : إن الوساوس تأتينى لحظة الصلاة . والصلاة - كما نعلم - هى أشرف موقف للعبد ؛ لأنه يقف بين يدى الرب ، لذلك يحاول الشيطان أن يلهى الإنسان عنها حتى يحبس عنه الثواب . وهذه الوساوس ظاهرة صحية فى الإيمان ، ولكنها تحتاج إلى اليقظة ، فساعة ينزغ الشيطان الإنسان نزغة فليتذكر قول الحق :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٠٠ سورة الأعراف)

وعندما نستعيذ بالله فوراً يعرف الشيطان أنك منتبه له ، حتى ولو كنت تقرأ القرآن فى أثناء الصلاة ووسوس لك الشيطان ، اقطع القراءة واستعذ بالله ، ثم واصل القراءة والصلاة ، وحين يعرف الشيطان أنك منتبه له مرة واثنتين وثلاثاً فهو يبتعد عنك فلا يأتى لك من بعد ذلك إلاّ إذا أحسّ منك غفلة .

ويبين لنا الحق طريقة الشيطان فى أخذ النصيب المفروض من عباد الله فقال عن إبليس : « ولأضلنهم » . والإضلال معناه أن يسلك الشيطان بالإنسان سبيلاً غير مؤدٍ للغاية الحميدة ؛ لأنه حين يسلك الشخص أقصر الطرق الموصلة إلى الغاية المنصوبة ، فمعنى ذلك أنه اهتدى ، أما إذا ذهب بعيداً عن الغاية ، فهذا هو

الضلال . والحق سبحانه وتعالى بوضعه منهج الهداية أعطانا أقصر طريق مستقيم إلى الغاية ، فإذا ما انحرفنا هنا أو هناك ، فالانحراف فى البداية يتسع حتى ننتهى إلى غير غاية .

وضربنا قديماً هذا المثل وقلنا : إن هناك نقطة فى منتصف كل دائرة تسمى مركز الدائرة ، فإذا ما انحرف المتجه إليها بنسبة واحد على الألف من المليمتر فتتسع مسافة ابتعاده عنها كلما سار على نسبة الانحراف نفسها ، برغم أنه يفترض فى أن كل خطوة يخطوها تهيىء له القرب إلى الغاية .

لقد ضربنا مثلاً توضيحياً بـ «الكشك » الذى يوجد قبل محطات السكك الحديدية ، حيث ينظم عامل « الكشك » اتجاهات القطارات على القضبان المختلفة ويتيح لكل قطار أن يتوقف عند رصيف معين حتى لا تتصادم القطارات ، ومن أجل إنجاح تلك المهمة نجد عامل التحويلات فى هذا « الكشك » يحرك قضيباً يكون سمكه فى بعض الأحيان عدداً من المليمترات ، ليلتصق هذا القضيب بقضيب آخر وبذلك يسمح لعجلات القطار أن تنتقل من قضيب إلى آخر .

الضلال ـ إذن ـ أن يسلك الإنسان سبيلاً غير موصل للغاية ، وكلما خطا الإنسان خطوة فى هذا السبيل ابتعد عنها ، وهذا الابتعاد عن الغاية هو الضلال البعيد ، والإضلال من الشيطان يكون بتزيينه الشر والقبح للإنسان ليبعده عن مسالك الخير والفضيلة .

ومن بعد ذلك يأتى على لسان الشيطان ما قاله الحق فى هذه الآية : « ولأمنينهم » والأمانى هى أن ينصب الإنسان فى خياله شيئاً يستمتع به من غير أن يخطو له خطوة عمل تقربه من ذلك ، ومثال ذلك الإنسان الذى نراه جالساً ويمنى نفسه قائلا : سيكون عندى كذا .. وكذا وكذا ولا يتقدم خطوة واحدة لتحقيق ذلك .

ولذلك يقول الشاعر تسلية لنفسه :

مُنًى .. إن تكن حقاً .. تكن أحسن المنى
وإلا فقد عشنا بها زمنا رغداً

أى أنه استمتع بهذه الأمانى فى أحلام اليقظة سواء أكانت هذه الأحلام امتلاك قصر أم سيارة أم غير ذلك . وكل أمنية لا تحفز الإنسان إلى عمل يقربه منها هى أمنية كاذبة ، ولذلك يقال : « إن الأمانى بضاعة الحمقى » والشيطان يمنى الإنسان بأنه لا يوجد بعث ولا جزاء .

ومن بعد ذلك يقول الشيطان : « ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام » والبتك هو : القطع . والأنعام : هى الإبل والبقر والغنم ، أى قطع آذان الأنعام . والقرآن قال فى الأنعام :

﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾

(الآية ١٤٣ وجزء من الآية ١٤٤ سورة الأنعام)

لو كان الزوج يطلق على « الاثنين » لكان العدد أربعة فقط ، ويعلمنا التعبير القرآنى ويوضح لنا أن نفرق جيداً لنفهم أن معنى كلمة « زوج » ليس أبداً « اثنين » ، ولكن معناها : واحد معه غيره من نوعه أو جنسه . فيقال عن فردة الحذاء « زوج » لأن معها فردة أخرى ، ومثال آخر أيضا : كلمة « توأم » التى نظن أنها تعنى « اثنين » ، لكن المعنى الحقيقى أن التوأم هو واحد له توأم آخر ، فإذا ما أردنا التعبير عن الاثنين قلنا : « توأمان » .

وحين أورد من خطط الشيطان « ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام » فلهذا قصة . ونحن نعرف أن المنتفعين بالضلالات يصنعون لهم سلطة زمنية حتى يربطوا الناس بأشخاصهم هم . وكان المشرفون على الأصنام يقومون على خدمتها ، ولم يلحظ أحد أنه من الغباء تَقَبُّلُ فكرة أن يخدم البشر الآلهة ، فالإله هو القيوم على خلقه يرعاهم ويقوم بأسبابهم ، وكان هؤلاء الناس هم المنتفعين بخيبة الغفلة عند البشر ، وكانوا يعيشون سدنة ليأخذوا الخير ، وبطبيعة الحال فالشيطان من البشر أو الجن يجدها

وسيلة ، فيجلس فى جوف الصنم ويتكلم فيأخذ السدنة والخدم هذه المسألة لترويج الدعايات للصنم ، فيأتى الأغبياء له بالأنعام من الإبل والبقر والغنم فيذبحونها ويأكلونها . ولذلك كان السدنة دائماً وفى أغلب الحالات أهل سمنة لأنهم أهل بطنة ، والنبى صلى الله عليه وسلم قال :

(إن الله يبغض الحَبْرَ السمين)[1] .

فمثل هذا الحَبْرَ يستسهل أكل خير الناس والانتفاع به ، فهو ينتفع بضلالات الناس ، ومن ينتفع بالضلالة يرى أن حظه فى أن تستمر الضلالة ، مثله فى ذلك مثل المنتفع من تجارة المخدرات إنه يتمنى أن يتعاطى الناس جميعهم المخدرات . . وعندما تقوم حملات لمقاومة المخدرات يغضب ويحزن .

ومثل ذلك أيضاً تاجر السوق السوداء الذى يصيبه الغمّ عندما تأتى البضائع على قدر حاجات الناس وتكفيهم . فكل فساد مستتر وراءه أناس ينتفعون به . وعندما يرى المنتفع بالفساد هبّة إصلاح يغضب ويحاول أن يجد وسيلة لاستمرار الفساد ، ولهذا كان السدنة ينفخون فى الأصنام لتصدر أصواتاً ليطلبوا من وراء ذلك مطالب من الأغبياء المصدقين لهم ، مثلهم مثل الدجالين الذين نسمع عنهم حيث يقول الواحد منهم لأهل المريض : إن على المريض عفريتاً ، والعفريت يطلب ناقة أو ذبيحة أو دما .

هكذا كان يفعل السدنة ، ويحاولون بشتى الطرق من الحيل والخدع حتى يأخذوا من الغافلين السذج الإبل والبقر والغنم . وعندما يقطع صاحب الإبل أو البقر أو الغنم أذن أى واحدة منها ، فهذا يعنى أنها منذورة للأصنام ، والأصنام بطبيعتها لا تأكل ولكن السدنة يأكلون .

وفى آية أخرى يقول فيها الحق :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾

(من الآية ٥٩ سورة يونس)

---

(١) أخرجه الواحدى فى أسباب النزول ، وعند أبى نعيم فى الطب النبوى وعزاه أبو الليث السمرقندى فى بستانه لأبى أمامة الباهلى مرفوعا .

ويورد الحق أيضاً فى هذا الأمر :

﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ
أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ
ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ
ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا
لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فهل المحرم هو « الذكران » أو الأنثيان أو الذى اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ .

لا شىء من هذه كلها محرّم ؛ فقد خلقها الله كلها رزقاً حلالاً . والنعمة نفسها تعرف وظيفتها ، ونلحظ فى الريف المصرى عندما تختنق جاموسة أو بقرة أو خروف بالحبل . أو يصاب بأذى أو مرض فإنه ينام ويمد عنقه فيقال : « لقد طلب الحلال » ، كأن البهيمة تقول لصاحبها : الحقنى بالذبح لتستفيد من لحمى ونتعجب لأن الحمار مثلاً لا يفعل ذلك ؛ لأن لحمه غير محلل . لكن البهيمة تعرف فائدتها بالنسبة للإنسان فتمد رقبتها طالبة الذبح ، كما نعرف أنها فى أثناء حياتها تخدم الإنسان إما فى أن تحمل الأثقال ، وإمّا أن يأخذ منها الألبان أو الوبر أو الصوف أو الشعر ، ولحظة ما يدهمها ويغشاها ويصيبها خطر فهى تمد رقبتها كأنها تطلب الذبح ليستفيد الإنسان من لحمها ، فهى مسخرة للإنسان وتعرف ذلك إلهاما وتسخيراً .

ومادام الله قد جعل لنا كل هذا . . فلم نقبل تحريم غير المحرّم وتحليل غير الحلال ؟ لكن السدنة كانوا يفعلون الأعاجيب للسيطرة على الناس ، فإذا ما ولدت الناقة أربعة أبطن وجاءت بالمولود الخامس ذكرا يقول السدنة : يكفى أنها جاءت بأربعة بطون وأتت بالخامس فحلاً ذكراً ويشقون أذن الناقة ويتركونها ؛ وعندما يراها أحد ويجد أذنها مشقوقة فالعرف يقضى بألا تستخدم فى أى شىء ، لا فى الرضاعة ، ولا فى الحمل ولا يحلب لبنها ولا تمنع من المياه أو الكلأ وتسمى

« البحيرة » ويأخذها السندة فى أى وقت ؛ لأنهم لا يريدون تخزين اللحوم ، يريدونها حية ليذبحوها فى الوقت الذى يتراءى لهم ، ولذلك قال الحق :

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة المائدة)

والبحيرة - إذن - هى الناقة التى تبحر آذانها - أى تشق - فذلك يعنى أنها جاءت بأربعة أبطن تباعاً ثم جاءت بالذكر فى البطن الخامسة ويهبها صاحبها للأصنام . والبحيرة سائبة مع وجود سائبة أخرى ، وهى وإن لم تأت بأربعة أبطن ولا بالذكر فى البطن الخامسة ولكن صاحبها يقدمها نذراً أو هدية لأحد الأصنام . وتسمى « سائبة » لأن أحداً لا يقوم على شأنها ، ولكنها ترعى فى أى أرض وتشرب من أى ماء ولا أحد يأخذ من لبنها أو يركبها ، ويأخذها السدنة وقت احتياجهم للحم الطازج الغض . وإذا ولدت الشاة أنثى جعلوها لهم ، وإن ولدت ذكرا جعلوه لآلهتهم ، وإن ولدت ذكرا وأنثى لم يذبحوا الذكر لآلهتهم وقالوا عن الشاة : وصلت أخاها فهذه هى الوصيلة ؛ لأن الناس كانت تحتفظ بالإناث من البهائم فهى وعاء النسل ؛ لذلك فهبة الفحل للسدنة كان أمراً مقدوراً عليه . ويقول الشاعر :

وإنما أمهات القوم أوعية ... مستحدثات وللأحساب آباء

ونرى فى المزارع أن إناث المواشى تحتاج إلى فحل واحد ؛ وقد يكون فى البلدة كلها فحل واحد أو اثنان لإناث الماشية من النوع نفسه ، ويفرح الأطفال فى الريف حين تلد الماشية ذكراً ؛ لأنه سيتغذى قليلاً ثم يتم ذبحه ويأكلون منه . ويغضب الأطفال حين تلد الماشية أنثى لأنه سيتم تربيتها ، ولن يأكلوا منها .

أى أنهم قديماً عندما كانت الماشية تلد فى بطن واحد أنثى وذكراً لا يذبحون الذكر ويقولون : الأنثى وصلت أخاها ويضمن الذكر حياته ويستخدم كفحل ليلقح بقية الإناث ، ويقال عنها : الوصيلة .

هكذا نجد البحيرة هى الناقة التى أنجبت خمسة أبطن آخرها ذكر ، والسائبة وهى النذر من أول الأمر ، والوصيلة وهى التى ولدت أنثى ومعها ذكر ، فيقال وصلت الأنثى أخاها ، أى قدمت له الحماية . والحام هو الذكر الذى نتجت من صلبه عشرة

أبطن فلا يركب ولا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى وقالوا : حمى ظهره .

وهناك من يتحذلق فى عصرنا قائلاً : أنا نباتى ، لا آكل اللحم ، على الرغم من أن الواحد منهم قد يذبح إنساناً ويدعى الحزن عند ذبح دجاجة ، ونقول لهؤلاء : انتبهوا ؛ إن الله قد سخر لنا هذه الأنعام وهى نفسها تحب أن ينتفع بها .

ومن وسائل الشيطان ما يقوله الحق : « ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام » وعرفنا أنهم كانوا يفعلون ذلك من أجل إرضاء سدنة الأصنام ، هؤلاء السدنة الذين أحبوا أن تظل هذه الأصنام وهذه الأنعام المرصودة من أجلها . ولذلك أقول دائماً : آه من أن يرتبط رجل دين بمسائل دنيا ؛ فهذا مصدر للخوف من أن يزيف الدين لمصلحة الأهواء .

ومن وسائل الشيطان ما يقوله الحق على لسان الشيطان : « ولآمرنهم فليغيرن خلق الله » . وكشف لنا الحق كيف صار للشيطان أمر على هؤلاء الناس ، مع أن الأمر يجب أن يكون لله وحده ، ونتساءل : كيف يغيرون من خلق الله ؟ وكل شىء هو من خلق الله .

والخلق ـ كما نعلم ـ إيجاد من عَدم ، وسبحانه خلق كل شىء وجعل لكل كائن وظيفة ما ، فهو خلق عن حكمة لغاية ، وهذه الغاية موجودة فى علم الخالق أزلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد المستحدَث الصناعى فى الأسواق كغسالة الملابس مثلا ونعرف أن الذى صممها إنما صممها من أجل راحة الناس ، وقد فكر فى هذا الهدف قبل أن يصنع ويصمم الآلة التى تؤدى هذا العمل لتريح الناس من تعب غسل الملابس بأيديهم ، وكذلك من صمم « الميكرفون » أراد فى البداية هدفاً هو أن يصل الصوت لمن هو بعيد ، ثم بدأ البحوث والتطبيقات من أجل أن يصل إلى الغاية والقصد .

والحق سبحانه وتعالى خلق كل خلق من خلقه لغاية ، فإن استعملنا مخلوقه لغايته ، فلن نقع فى محظور تغيير خلق الله ، ولكن لو استعملنا المخلوق لغير الغاية فهذا هو التغيير لخلق الله ، وساعة نريد فهم لفظ من الألفاظ فلنبحث فى القرآن عن

نظائره ، وقد نجد فى القرآن نفسه ما يفسر القرآن نفسه ، فالحق يقول هنا : « فليغيرن خلق الله » ، وفى موقع آخر يقول :

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

والخلق المعروف نراه فى الكائنات ، وهناك ما لا نراه أيضاً ، والأمر مقصود به قوله الحق :

﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة يس)

وآية أخرى تقربنا أكثر من هذا الموضوع :

﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الروم)

وهذا يعنى أن الخلق كله على أصل الفطرة . فإذا ما حاول أحد أن يغير الفطرة فهذا تغيير لخلق الله . ما الفطرة إذن ؟. إنها الصفاء الأولىّ فى النفس والطبيعة . ومثال ذلك حين يوجد الإنسان فى بيئة لا تكذب فلن يعرف فى حياته الكذب . وعندما يوجد الإنسان فى بيئة لا تسرق فلن يعرف ما السرقة ؛ فالإنسان إنما يتعرف على الموبقات من النقص المجتمعى ، بدليل أن البلدان التى طبقت الشريعة الإسلامية وتم قطع عدد قليل من الأيدى عقوبة وحداً فى السرقة انتهت فيها السرقة . ونشأ جيل لم ير سارقاً . ومن يترك شيئاً فى مكان ما يظل فى مكانه إلى أن يعود صاحبه ليجده ، هذه هى الفطرة السليمة ، ودليلنا على أن الفطرة سليمة بطبيعتها هو أننا نجد أن الذى يحاول صنع أمر ما يخالف الفطرة إنما يتلصص ويستتر ؛ لأنه يعرف أن هذا الأمر غير سليم .

لقد ضربت المثل على ذلك بالرجل حين ينظر إلى زوجته ، إنّه ينظر بكل ملكاته ، أما إن نظر ـ والعياذ بالله ـ إلى محارم غيره فهو يتلصص ليختلس النظر بعيداً عن الآخرين . فالإنسان حين يرتكب إثماً يتكلف شيئاً متنافراً ومغايراً لطبيعته . والتكلف هو الإتيان بشىء خارج عن الفطرة الإنسانية . وتغيير كل ما يتعلق بالفطرة هو تغيير لخلق الله .

وصور الفساد لا تأتى إلا من هذه الناحية .

كيف ؟ .

إننا نرى الحق قد خلق الزوجين الذكر والأنثى . ونجد من الرجال من يستأنث ـ أى أنه يحاول أن يكون أنثى ـ وقد يتصرف كما تسلك المرأة وتتصرف ويتزين بزينتها ويتخنث ، هذا إنسان يريد أن يغير خلق الله . وكذلك قد نجد امرأة تريد أن تسترجل ، فهى تريد أن تغير خلق الله .

ولذلك فإننا نرى أستاذاً عالماً هو الدكتور حسن جاد ـ أمده الله بالعافية ـ وهو شاعر وزميل لى ونشأنا معاً ، رأى هذه الظاهرة ، ظاهرة محاولة البعض تغيير خلق الله فقال قصيدة مشهورة جاء فيها :

من حيرتى من الذين اللاتى   حرت بين الفتى وبين الفتاة

الشاعر يعلن حيرته ؛ لأنه لا يتعرف على الفارق بين الفتى والفتاة ، ففى بعض الأحيان صارا من « الذين واللاتى معاً » لأن الفتى يتشبّه بالفتاة ، والفتاة تتشبّه بالفتى . على الرغم من احتفاظ كل منهما بخصائص نوعه ، وبما يميزه عن النوع الآخر . وبعض النساء يقمن بإجراءات لتغيير الخلقة ، كنزع شعر الحواجب من منابته وإعادة رسم مكانه بوضع خط بالقلم الملون ، ويفضح ذلك نبتُ الشعر من جديد ، فتتحول إلى شكل قبيح وتنسى أن الجمال إبداع تقاسيم ، فقد يكون سرّ جمال واحدة أن يكون شعر الحاجبين كثيفا ، وقد يكون سرّ الجمال للمرأة اتساع الفم ، أو طول الأنف .

لقد سمعنا أن أنف كليوباترا لو كان قصيراً بعض الشيء لتغير وجه التاريخ . والحق سبحانه وتعالى كما وزع الأمزجة على العباد وزع أيضاً أسلوب الخلق بما يغطى هذه الأمزجة . ألا ترى فى الحياة اليومية شاباً يتقدم لخطبة فتاة فلا تعجبه ، أو لا يعجبها ، ويأتى آخر فيعجب بالفتاة نفسها وتعجب الفتاة به . هو سبحانه الذى أنشأ السيال العاطفى ليتواءم الخلق بهذا السيال . وقد تحاول فتاة أن تغير من خلق الله فتسبب بذلك فساداً للسيال العاطفى .

وقد تريد المرأة أن تجعل حمرة خديها فى لون الورد فتضع عليهما بعضاً من

المساحيق ، ألا تعلم هذه المرأة أن زوجها وأقاربها يعرفون أنها قد صنعت ذلك بمواد خارجية ، وماذا يكون موقفها عندما يراها زوجها فى الصباح وقد أفسدت الألوان بشرتها ، وماذا يكون موقفها عندما تتقدم بها السن وتكون المساحيق قد خنقت مسام جلدها ومنعت الجلد من التنفس ، ويتحول شكلها باستمرار سوء فعلها إلى كائن أقرب إلى وجه القرد والعياذ بالله ؟ لقد غيرت بسوء الفعل خلق الله .

وكذلك الأظافر التى يتم خنقها بطبقات من « البلاستيك » الملون . هل تظن واحدة أن هناك رجلاً قد يتصور أن هذا هو لون أظافرها الطبيعى ؟ . إن الأظافر ذات لون أراده الله بحكمه ، لها نظام ، فلماذا تحرم المرأة أظافرها من الحياة الطبيعية ومن نعمة تنفس الهواء ، فالأظافر تتنفس أيضا . وقد يفتى واحد بأنه يصح للمرأة أن تتوضأ بعد أن تضع هذا الطلاء ، وأقول : اتق الله ؛ فهذه ليست أصباغاً ، لأن الأصباغ تتخلل الجلد أو الظفر ولا يذهب لون الصبغة إلا بذهاب الجلد أو الظفر - مثل الحنة - وفى هذه الحالة يصل الماء فى الطهارة إلى الجلد ، أما طبقة البلاستيك التى على الظفر فلا تُزال إلا بمادة كيماوية ويمكن إزالتها وهى لون من الطلاء وليست صبغة ولا يصل الماء معها فى الغسل أو الوضوء إلى البشرة .

ومن تفعل ذلك إنما تخدع نفسها ومن يُعجب بها . ولنا أن نعرف أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يعدل من مزاج الكون فيعطى للإنسان سكناً ومتعة ولكن بتوازن عاطفى وعقلى ، فلو أراد الله لخدّ المرأة التوهج لتثير غرائز الرجل لخلق الله الخدين على هذا الأسلوب ، لكنه أراد للخدود أن تكون بألوانها الطبيعية حتى تهيج الغرائز على قدر القوة التى فى الرجل ، وعندما تكبر المرأة نجد جمالها قد ذبل قليلاً على قدر نسبة ذبول قدرة الرجل ، فسبحانه يعطى على قدر الطاقة حتى لا تتحول المسألة إلى إهاجة للغرائز فقط .

إن هناك فرقا بين تصريف الغرائز وإهاجة الغرائز وإلهابها ، وما يحدث من وسائل التجميل هو تغيير لخلق الله . وكذلك المرأة التى تحدث وشماً[1] ، أو الرجل الذى يفعل ذلك إنما يغيران من خلق الله ، ولو كان الحق يرى أن مثل هذه الأعمال تزيد من الجمال لفعلها « فليغيرن خلق الله » .

---

(١) الوشم : ما يكون من غرز الإبرة فى البدن ، وذرّ ونثر مادة عليه تستخرج من نبات النيل تسمى : « النِّيلَج » حتى يَزْرَقَّ أثره أو يخضرّ .

ويقول الحق من بعد ذلك : « ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسرانا مبيناً » والولى للشيطان هو الذى يليه ويقرب منه . ومن فعل ذلك فقد ترك الأفضل وذهب إلى الأضعف الذى يورده مهاوى وموارد الهلاك ، ويخسر الخسران الواضح والمحيط من كل الجهات ، ولا انفلات من مثل هذا الخسران .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾

وهذا يعنى أن الشيطان يقدم الوعود الكاذبة لمواليه ويخبرهم بشىء يسرهم ، فالوعد هو أن يخبر أحد آخر بشىء يسرّه أن يوجد .

والمثال على ذلك نراه فى الحياة العادية فالإنسان منا يحب ماله الذى قد جاء بالتعب ، والصدقة فى ظاهر الأمر تنقص المال ، فيقول الحق :

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ ﴾

(من الآية ٢٦٨ سورة البقرة)

لماذا ؟ .

لأن الشيطان يوسوس فى صدر صاحب المال قائلاً : إنك عندما تتصدق ببعض المال فمالك ينقص . وويل لمن يرضخ لوساوس الشيطان ؛ لأنه يورده موارد التهلكة ، والشيطان أيضاً يقدم الأمانى الكاذبة فى الوساوس : « ويمنيهم » . ومثال ذلك ما جاء على لسان المتفاخر على أخيه بلون من الاستهزاء والعياذ بالله :

﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

المتفاخر يقول : مادام الله قد أعطانى فى الدنيا ، ومادامت مهمة الله هى العطاء الدائم فلا بد أن يعطينى ربى فى الآخرة أضعاف ما فى الدنيا ؛ ذلك أن سعيد الدنيا هو سعيد فى الآخرة ، فماذا كان جزاؤه ؟ .

لقد رأى انهيار زراعته وعرف سوء مصير الغرور ؛ لأنه استجاب لوعود الشيطان ، ووعود الشيطان ليست إلا غروراً « وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » .

فما هو الغرور ؟ . هناك « غُرور » ـ بضم الغين ـ ، و« غَرور » ـ بفتح الغين ـ . والغُرور ـ بضم الغين ـ هو الشيء يُصوَّر لك على أنّه حقيقة وهو فى الواقع وَهْم . والغَرور ـ بفتح الغين ـ هو من يفعل هذه العملية ، ولذلك فالغَرور ـ بفتح الغين ـ هو الشيطان ؛ لأنه يزين للإنسان الأمر الوهمى ، ويؤثر مثلما يؤثر السراب ؛ فالإنسان حين يرى انكسار الأشعة يخيل إليه أنه يرى ماء ، ويقول الحق عن ذلك :

﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النور)

وكذلك الغُرور ، حيث يزين الشيطان شيئاً للإنسان ويوهمه أنه سيستمتع به . فإذا ما ذهب الإنسان إليه فلن يجد له حقيقة ، بل العكس ، ولذلك يفصل لنا الحق أعمال الكفار فيقول عنها :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

ويفاجأ الكافر بوجود الله الذى كان كافراً به ، ويصير أمام نكبتين : نكبة أنه كان ذاهباً إلى ماء فلا يجده فيخيب أمله ، والنكبة الثانية أن يجد الله الذى يحاسبه على الإنكار والكفر .

ويقول الحق :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

وقد يأتى واحد ويدعى لنفسه الإنسانية ويظن أنه يتكلم بالمنطق فيقول :

ـ هل هؤلاء الناس الذين قدموا للبشرية كل هذه المخترعات التى أفادت الناس كالمواصلات وغيرها ، أيصيرون إلى عذاب ؟. ونقول : هؤلاء سيأخذون جزاء الكفر ؛ لأن الواحد منهم قد عمل أعماله وليس فى باله الله . بل قام بتلك الأعمال وفى باله عبقرية الابتكار والإنسانية وهو يأخذ من الإنسانية التكريم ، وعليه أن يطلب أجره ممن عمل له وليس ممن لم يعمل له ، وينطبق عليه قول الرسول :

عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم يقول : (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنّك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلّمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلّا أنفقت فيها لك . قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار)[1] .

ولم يغمطهم الله جزاء أعمالهم فى الدنيا . فقد أخذوا من الدنيا كل التكريم .

ووزع سبحانه فضل هذه المواهب على الناس الذين فى بالهم الله ؛ لذلك ترى المسلم غير المتعلم يركب الطائرة ليحج بيت الله ويُسجل أحاديث الإيمان على شرائط ليسمعها من لم يحضر ويشاهد هذه الشعيرة ، إذن فهؤلاء الكافرون مسخرون للمؤمنين لأنهم أتاحوا لهم الانتفاع بعلمهم واكتشافاتهم ، والمؤمنون أيضاً مطالبون بأن يأخذوا بأسباب الله لينالوا كرم الله فى عطاء العلم ، بل إن ذلك واجب عليهم يأثمون إذا لم يقوموا به حتى لا يكونوا عالة على سواهم ، فلا يستذلون .

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه فى الجهاد . وأخرجه كذلك النسائى والترمذى وابن ماجه .

« وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » وماذا يكون نصيب هؤلاء فى الآخرة ؟ يقول سبحانه :

﴿ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ١٢١ ﴾

وكلمة « مأوى » معناها المكان الذى يضطر الإنسان إلى أن يأوى إليه ، فهل هذا الاضطرار يكون اندفاعاً أو جذباً ؟ سبحانه يقول عن النار إنها ستنطق قائلة :

﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة ق)

كأن النار ستجذب أصحابها . وهم لن يجدوا عنها محيصاً ، أى لا مهرب ولا مفر ولا معدى ، وكان باستطاعة الواحد منهم أن يفر من مخلوق مثله فى دنيا الأغيار ، ولكن حين يكون الأمر لله وحده فلا مفر .

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

والمقابل لذلك يورده الحق :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ١٢٢ ﴾

وحين يأتى سبحانه بأمر يتعلق بالكفار وعقابهم فالنفوس مهيأة ومستعدة لتسمع عن المقابل ، فإذا كان جزاء الكفار ينفر الإنسان من أن يكون منهم ، فالنفس السامعة تنجذب إلى المقابل وهو الحديث عن جزاء المؤمنين أصحاب العمل لصالح . وسبحانه قال من قبل :

﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

(من الآية ١١٤ سورة النساء)

وهنا يقول : « سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » . والمتيقن من الله والواثق به يعلم أنه لا توجد مسافة تبعده عن عطاء الله ، مثال ذلك حينما سأل النبىّ أحد الصحابة وكان اسمه الحارث بن مالك الأنصارى : (كيف أصبحت يا حارث ؟) .

قال : أصبحت مؤمنا حقاً . لقد أجاب الصحابى بكلمة كبيرةالمعانى وهى الإيمان حقاً ؛ لذلك قال الرسول : انظر ما تقول فإن لكل شىء حقيقة فما حقيقة إيمانك » ؟

أجاب الصحابى : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت لذلك ليلى وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربىّ بارزا وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها (يتصايحون فيها) .

فقال : « يا حارث : عرفت فالزم ثلاثا »[1] .

والحق ساعة يقول : « سـ » وساعة يقول : « سوف » فلكل حرف من الحروف الداخلة على الفعل ملحظ ومغزى وكل عطاء من الله جميل . « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » .

والجنة ـ كما قلنا من قبل ـ على إطلاقها تنصرف إلى جنة الآخرة فهى الجنة بحق ، أما جنة الدنيا فمن الممكن أن يتصوّحَ نباتها وشجرها وييبس ويتناثر ، أو يصيبها الجدب ، أمّا جنة الآخرة فهى ذات الأكل الدائم ، وإن لم تطلق كلمة « الجنة » من

١ ـ رواه الطبرانى فى الكبير وأبو نعيم فى الحلية . وضعفه الدارقطنى وابن حبان .

أى قيد أو وصف بل قيدت ، فالقصد منها معنى آخر ؛ كقول الحق :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة القلم)

وقوله سبحانه :

﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾

(من الآية ٢٦٥ سورة البقرة)

والجنة بربوة هى البستان على مكان عال ، وهى ذات مواصفات أعلى مما وصل إليه العلم الحديث ؛ لأن الأرض إذا كانت عالية لا تستطيع المياه الجوفية أن تفسد جذور النبات المزروع فى هذه الأرض ، فيظل النبات أخضر اللون ، ويقول الحق عن مثل هذه الجنة :

﴿ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾

(من الآية ٢٦٥ سورة البقرة)

ويزيد على ذلك أنها بربوة ، وأنها تروى بالمطر من أعلى ، ومن الطل ، فتأخذالرّى من المطر للجذور،والطل لغسل الأوراق . كل ذلك يطلق على الجنة .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : « جنات تجرى من تحتها الأنهار » ويطمئننا سبحانه على احتفاظها بنضرتها وخضرتها ، وأول شىء يمنع الخضرة هو أن يقل الماء فتذبل الخضرة .

ونجد القرآن مرة يقول : « جنات تجرى تحتها الأنهار » وهذا يعنى أن منبع المياه بعيد . ومرة أخرى يقول : « جنات تجرى من تحتها الأنهار » ويعنى أن منبع المياه لن يحجزه أحد ؛ لأن الأنهار تجرى وتنبع من تحتها . ويعد الحق المؤمنين أصحاب العمل الصالح بالخلود فى الجنة ، والخلود هو المكث طويلاً ، فإذا قال الحق : « خالدين فيها أبداً » أى أن المكث فى الجنة ينتقل من المكث طويلاً إلى المكث الدائم .

وهذا وعد مَن ؟ « وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً » . وحين يعدك من

لا يخرجه شيء عن إنفاذ وعده ، فهذا هو وعد الحق ـ سبحانه ـ . أما وعد المساوى لك فى البشرية فقد لا يتحقق ، لعله ساعة إنفاذ الوعد يغير رأيه ، أو لا يجد الوُجد واليسار والسَّعة والغنى فلا يستطيع أن يوفى بما وعد به ، أو قد يتغير قلبه من ناحيتك ، لكن الله سبحانه وتعالى لا تتناوله الأغيار ، ولا يعجزه شيء ، وليس معه إله آخر يقول له لا . إن وعده سبحانه لا رجوع فيه ولا محيص عن تحقيقه .

قول الله هنا « وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلا » هو كلام منه ليوضح لكل واحد منا : أنا لا أريد أن أستفهم منك ، لكنه جاء على صورة الاستفهام لتكون الإجابة من الخلق إقرارا منهم بصدق ما يقوله الله ، أيوجد أصدق من الله ؟

وتكون الإجابة : لا يمكن ، حاشا لله ؛ لأن الكذب إنما يأتى من الكذاب ليحقق لنفسه أمراً لم يكن الصدق ليحققه ، أو لخوف ممن يكذب عنده ، والله منزه عن ذلك ، فإذا قال قولاً فهو صدق .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ١٢٣ ﴾

والأمنية ـ كما عرفنا ـ هى أن يطمح الإنسان إلى شيء ممتع مسعد بدون رصيد من عمل ، إنّ الحق سبحانه وتعالى حينما استخلف الإنسان فى الأرض طلب منه أن يستقبل كل شيء صالح فى الوجود استقبال المحافظ عليه ، فلا يفسد الصالح بالفعل ، وإن أراد الإنسان طموحاً إلى ما يسعد ، فعليه أن يزيد الصالح صلاحاً .

والمثل الذى نضربه لذلك ، عندما يوجد بئر يشرب منها الناس ، فهذه البئر لها

حواف وجوانب وأطراف ، وتفسد البئر إذا جاء أحد لهذه الحواف وأزاح ما فيها من الأتربة ليطمر البئر .

ومن يرد استمرار صلاح البئر فهو يتركها كما هى وبذلك يترك الصالح على صلاحه . وإن شاء إنسان أن يطمح إلى عمل مسعد ممتع له ولغيره فهو يعمل ليزيد الصالح صلاحاً . . كأن يأتى إلى جوانب البئر ويبنى حولها جداراً من الطوب كى لا يتسلل التراب إلى الماء أو على الأقل يصنع غطاءً للبئر ، فإن طمح الإنسان أكثر فهو يفكر فى راحة الناس ويحاول أن يوفر عليهم الذهاب إلى البئر ليملأوا جِرارهم وقِرَبهم فيفكر فى رفع المياه بمضخة ماصة كابسة إلى صهريج عال ، ثم يخرج من هذا الصهريج الأنابيب لتصل إلى البيوت ، فيأخذ كل واحد المياه وهو مرتاح ، إنه بذلك يزيد الصالح صلاحاً .

أما إن أراد الإنسان أن يطمح إلى ممتع دون عمل . . فهذه هى الأمانى الكاذبة . ولو ظل إنسان يحلم بالأمنيات ولا ينفذها بخطة من عمل . . فهذه هى الأمانى التى لا ثمرة لها سوى الخيبة والتخلف .

إذن فالأمنية هى أن يطمح إنسان إلى أمر ممتع مسعد بدون رصيد من عمل . ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى أعطانا من كل شىء سببا ، ولنلحظ أن الحق قد قال :

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

أى أن الإنسان مطالب بأن يصنع أشياء تُرَقِّى أساليب الحياة فى الأرض ، فالله ضمن للإنسان الخليفة مقومات الحياة الضرورية ، وعندما يريد الإنسان الترف والتنعم فلا بد أن يكدح . ومثال ذلك : لقد أعطى الحق الإنسان المطر فينزل الماء من السماء ، وينزل ماء المطر فى مجارٍ محددة ، حفرها المطر لنفسه ، وقد يكون فى كل مجرى تراب من صخور أو طمي ؛ لذلك يقوم الإنسان بترويق المياه ، ويرفعها فى صهاريج لتأتيه إلى المنزل ، وبدلاً من أن يشربها بيده من النهر مباشرة ، يصنع كوباً جميلا . وصنع الإنسانُ الكوبَ فى البداية من الفخار ، ثم منْ مواد مختلفة كالنحاس ثم البللور . وهكذا نجد أن كل ترف يحتاج إلى عمل يوصل إليه ، فليست المسألة بالأمانى .

وكذلك الانتساب إلى الدين ، ليست المسألة أن يمثل الإنسان وينتسب إلى الدين شكلاً ، فالرسول صلى الله عليه وسلم جاء ليحكم بين الناس جميعاً ، ولا يمكن لواحد أن ينتسب شكلاً إلى الإسلام ليأخذ المميزات ويتميز بها عن بقية خلق الله من الديانات الأخرى ، لا ؛ فالإنسان محكوم بما يدين به . والمسلم أول محكوم بما دان به .

كذلك قال الحق : « ليس بأمانيكم » والخطاب هنا لمن ؟. إن كان الخطاب للمؤمنين فالحق يوضح لهم : يا أيها المؤمنون ليست المسألة مسألة أمانى ، ولكنها مسألة عمل ؛ لأن انتسابكم للإسلام لا يعفيكم من العمل ؛ فكم من أناس يعبرون الدنيا وتنقضى حياتهم فيها ولا يصنعون حسنة ، فإذا قيل لهم : ولماذا تعيشون الحياة بلا عمل ؟ يقولون : أحسنَّا الظن بالله . ونسمع الحسن البصرى يقول لهؤلاء : ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، إن قوماً ألهتهم أمانىّ المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا : نحسن الظن بالله وكذبوا ، لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل له .

وسبحانه يقول لهؤلاء : « ليس بأمانيكم » . أما إن كان الخطاب موجهاً لغير المؤمنين ؛ فالحق لم يمنع عطاء الدنيا لمن أخذ بالأسباب حتى ولو لم يؤمن . أما جزاء الآخرة فهو وعد منه سبحانه للمؤمنين الذين عملوا صالحاً ، وهو الوعد الحق بالجنة ، هذا الوعد الحق ليس بالأمانى بل إن الوصول إلى هذا الوعد يكون بالعمل .

إذن فقد يصح أن يكون الخطاب بـ « ليس بأمانيكم » شاملاً أيضا الكفار والمنافقين وأهل الكتاب . وكان للكفار بعض من الأمانى كقول المنكر للبعث :

﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

هذه هى أمانى الكفار . ولن يتحقق هذا الوعد بالجنة لأهل الكتاب ، فقد قال الحق عن أمانيهم :

﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾

(من الآية ١١١ سورة البقرة)

وقالوا :

﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾

(من الآية ٨٠ سورة البقرة)

كل هذه أماني خادعة ؛ لأن منهج الله واحد على الناس أجمعين ، من انتسب للإسلام الذى جاء خاتماً فليعمل ؛ لأن القضية الواضحة التى يحكم بها الله خلقه هى قوله سبحانه : « من يعمل سوءاً يُجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

وأبو هريرة رضى الله عنه يقول : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سدّدوا وقاربوا فإن فى كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها »[1] .

وقال بعض العلماء : المراد بالسوء فى هذه الآية هو الشرك بالله ؛ لأن الله وعد أن يغفر بعض الذنوب . واستند فى ذلك إلى قوله الحق :

﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة فاطر)

كأن الجزاء المؤلم يكون للكفار ، أما الذين آمنوا ، فالإيمان يرفعهم إلى شرف المنزلة ليقبل الله توبتهم ويغفر لهم ، فسبحانه الحق جعل الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ، وجعل صلاة الجمعة إلى صلاة الجمعة كفارة لما بينهما ، وجعل الحج كفارة لما سبقه ، وكل ذلك امتيازات إيمانية . أما جزاء الكفار فهو : « من يعمل سوءاً يُجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

ولا يقال فلان لا يجد إلا إذا بحث هذا الشخص عن شيء فلم يجده ، فالإنسان بذاته لا يستغنى ، ولكن من يعمل سوءا فليبحث لنفسه عن ولى أو نصير ولن يجد .

والولى هو الذى يلى الإنسان ، أى يقرب منه ، ومثلها النصير والمعاون ، ولا يلى

١ ـ رواه مسلم وأحمد والترمذى والنسائى من حديث سفيان بن عيينة .

الإنسان ولا يقرب منه إلا من أحبه . ومادام قد أحب قوىٌ ضعيفاً ، فهو قادر على الدفاع عنه ومعاونته .

ولماذا أورد الحق هنا « الولى » ، و« النصير » ؟ . والولى ـ كما عرفنا ـ هو القريب الذى يلى الإنسان ، أما كلمة « نصير » فتوحى أن هناك معازك وخصومة بين المؤمن وغيره ، وهناك قوة كبرى قد يظهر للإنسان أنها لا تسأل عنه لأنه فى سلام ورخاء ، إن هذه القوة عندما تعلم أن هناك خصوماً للمؤمن تأتى لنصرته ، بينما لا يجد الكافر ولياً أو نصيراً ، ولن يجد من يقرب منه ولن يجد من ينصره إن عضته الأحداث ، وعض الأحداث هو الذى يجعل الناس تتعاطف مع المصاب حتى إن البعيد عن الإنسان يفزع إليه لينصره ، لكن أحداً لا ينصر على الله .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾

وجاءت كلمتا « ذكر » و« أنثى » هنا حتى لا يفهم أحد أن مجىء الفعل بصيغة التذكير فى قوله (يعمل) أن المرأة معفية منه ؛ لأن المرأة فى كثير من الأحكام نجد حكمها مطموراً فى مسألة الرجل ، وفى ذلك إيحاء بأن أمرها مبنى على الستر .

لكن الأشياء التى تحتاج إلى النص فيها فسبحانه ينص عليها . « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى » . وجاء سبحانه هنا بلفظة (مِن) التى تدل على التبعيض . . أى على جزءٍ من كلّ فيقول : « ومن يعمل من الصالحات » ولم يقل : « ومن يعمل الصالحات » لأنه يعلم خلقه . فلا يوجد إنسان يعمل كل الصالحات ، هناك من يحاول عمل بعضٍ من الصالحات حسب قدرته . والمطلوب من المؤمن أن يعمل من الصالحات على قدر إمكاناته ومواهبه .